سـورة الحديد

هذه السورة مدنية ، وعدة آيها تسع وعشرون ، نزلت بعد الزلزلة .

ووجه مناسبتها لما قبلها .

(١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ماقبلها من الأمر بالتسبيح فكأنه قيل: سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له مافى السموات والأرض .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) .

شرح المفردات

جاء فى الكتاب الكريم سبَّح ويسبّح وسبِّحْ ويقال : سبحته وسبحت له كما يقال نصحته ونصحت له ، وتسبيح العقلاء أن يقولوا مايدل على تنزيهه من كل

نقص ، وإبعاده عما لا يليق به من صفات المحدثات ، كإثبات شريك له أو ندّ ، وكون الملائكة بنات له ، وكون عيسى ابنا له ، وتسبيح غيرهم دلالة وجوده على عظم خالقه ، وانقياده له فى كل آن .

وما مثل هذا إلا مثل إشارتك لصاحبك على وضع خاص يفهم منها تأنّ واصبر ، وإشارتك له على هيئة أخرى يفهم منها أنك لا تفعل هذا .

فهذه الدلالة فى الحالين أفهمت صاحبك إفهاما كافهام الكلام ، بل أقوى وأبلغ أثرا ، وكم للإنسان فى حركاته من معانى يفهمها الآخرون بطريق لا لبس فيها .

وإذا كان هذا حال الإنسان المحدود العلم والإدراك ، فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة ، وقد فهمنا منها ما لا نفهم بالقول ، فلو أنك وقفت فى الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والأشجار مترنحات ، وأنواع الكلأ متحركات ، والأوراق تغنّى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، تلمع من بينها الكواكب ، فتضىء من بينها السباسب لتجلت لك العبر ، وقرأت علوم المبتدإ والخبر ، ولعلمت أنها تحت قبضة ذى الملك والملكوت ، الحى الذى لا يموت ، الفرد الصمد ، المنزّه عن الصاحبة والولد ، سُبُّوح قُدُّوس ، رب الملائكة والروح ، العزيز أى الذى لا ينازعه فى ملكه شىء ، الحكيم : أى الذى يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب ، يحيى ويميت : أى يحيى النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ، ويميت الأحياء ، وهو على كل من الإحياء والإماتة قدير ، وهو الأول : أى السابق على سائر الموجودات ، والآخر : أى الباقى بعد فنائها ، والظاهر والباطن : أى وهو الذى ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت ، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وناطق بذاته ، ومشرق بجماله وكماله ، وهو ظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته ، وباطن بعلمه بما خفى منها فلا تخفى عليه خافية ، والمراد بستة الأيام ستة الأطوار ،

كما تقدم ذلك فى سورة الأعراف ، والاستواء على العرش تقدم تفسيره فى سورتى يونس وهود ، يلج فى الأرض : أى يدخل فيها من كنوز ومعادن وبذور ، وما يخرج منها : كالزرع والمعادن لمنفعة الناس ، وما ينزل من السماء : كالمطر والملائكة ونحوهما ، وما يعرج فيها : كالأبخرة المتصاعدة والأعمال والدعوات ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل تقدم تفسير هذا فيما تقدم ، ذات الصدور : أى مكنونات النفوس فهو العليم بالسرائر .

الإيضاح

(سبح لله مافى السموات والأرض) أى إن مادونه من خلقه ينزهه عن كل نقص تعظيما له وإقرارا بربوبيته ، وإذعانا لطاعته كما قال : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا » .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو القادر الغالب الذى لاينازعه شىء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه ، وتصريفها فيما شاء وأحب .

(له ملك السموات والأرض) أى له التصرف والسلطان فيهما ، وهو نافذ الأمر ، ماضى الحكم ، فلا شىء فيهن يمتنع منه .

(يحيى ويميت) أى يحيى مايشاء من الخلق كيف شاء ، فيحدث من النطفة الميتة حيوانا ينفخ فيه الروح ، ويميت مايشاء من الأحياء بعد بلوغ أجله .

(وهو على كل شىء قدير) أى وهو ذو قدرة لايتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال إلى نحو أولئك .

(هو الأول والآخر) أى هو الأول قبل كل شىء بغير حدّ كما جاء فى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى »

وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية كما قال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ » .

(والظاهر والباطن) أى وهو العالى فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه ، وهو الباطن بذاته فلا تحوم حوله الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وباطن بعلمه بما بطن وخفى ، فلا شيء إليه أقرب من شيء كما قال : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » .

(وهو بكل شيء عليم) أى وهو ذو علم تام بكل شيء ، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

(هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن فى ستة أطوار مختلفات ثم استوى على عرشه فارتفع عليه .

(يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم مايدخل فى الأرض من خلقه ، فلا تخفى عليه خافية منه ، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمار ومعادن كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ، وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(وما ينزل من السماء) من شيء كالمطر والملائكة .

(وما يعرج فيها) أى وما يصعد إليها من الأرض كالأبخرة المتصاعدة والأعمال الصالحة كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

(وهو معكم أينما كنتم) أى وهو مطلع على أعمالكم أينما كنتم ، ويعلم متقلبكم ومثواكم .

(والله بما تعملون بصير) أى وهو رقيب عليكم ، سميع لكلامكم ، يعلم سركم ونجواكم كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل لما سأله عن الإحسان « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقال عمر : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « زوّدنى حكمة أعيش بها ، فقال : استح الله كما تستحى رجلا من صالحى عشيرتك لا يفارقك » .

وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفُل ساعة ولا أنّ ما تُخْفِى عليه يغيب

(له ملك السموات والأرض و إلى الله ترجع الأمور) أى هو المالك لما فيهما ، والمدبر لأمرهما ، والنافذ حكمه فيهما ، و إليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال « وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى » وقال : « وَهُوَ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) أى يقلب الليل والنهار و يقدّرهما بحكمته كما يشاء ؛ فتارة يطول الليلُ و يقصر النهار والعكس بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وحيناً يجعل الفصل شتاء أو ربيعا أو قيظا أو خريفا ، وكل ذلك بتدبيره وفائدة خلقه .

(وهو عليم بذات الصدور) أى وهو عليم بالسرائر و إن دقت وخفيت ، فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر .

وفى ذلك حث لنا على النظر والتأمل ثم الشكر على ما أولى وأنعم .

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ

وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١).

شرح المفردات

مستخلفين فيه : أى جعلكم سبحانه خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ، أخذ الميثاق : نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والتمكين من النظر فيها ، والآيات البينات : هى القرآن ، والفتح : هو فتح مكة ، والحسنى : أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، يقرض الله : أى ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنواعا من الأدلة تثبت وحدانيته وعلمه وقدرته ببيان أن كل ما فى السموات والأرض فهو فى قبضته يصرفه كما يشاء على ما تقتضيه حكمته ، ثم ذكر أنواعا من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأوما إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية ، وأمر بدوام الإيمان الكامل الذى له آثاره العملية من إخبات النفس لله وإخلاص العمل له ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن

ثم طلب إنفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردَّة فهو ملك الله وأنتم خلفاؤه فى تثميره فى الوجوه التى فيها خير لكم ولأمتكم ولدينكم ، ولكم على ذلك الأجر الجزيل الذى يضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول ، وقد أخذ عليهم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم تخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، والله رءوف بكم إذ أنقذكم من هاوية الشرك وهداكم إلى طاعته ، ثم ذكر فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقلّ المعين ، فهؤلاء لايستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح وبعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى والأجر الكريم عند ربهم ؛ ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضا له ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

الإيضاح

(آمنوا بالله ورسوله) أى أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسوله فيما جاءكم به عن ربكم ـ تنالوا الفوز برضوانه ، وتدخلوا فراديس جناته ، وتسعدوا بما لم يدر لكم بخلد ، ولم يخطر لكم ببال .

(وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه) أى وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ولله درّ لبيد إذ يقول :

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

وفى هذا ترغيب أيما ترغيب فى الإنفاق ، لأن من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه ـ علم أنه لايدوم له بل ينتقل إلى غيره ، وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال شُعْبة : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرِّف بن عبد الله عن أبيه قال :

« انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» رواه مسلم.

ثم حث على ما تقدم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله فقال :

(فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) أى والذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خوّلهم الله عمن قبلهم – فى سبيل الله ، لهم الثواب العظيم عند ربهم ، وهناك يرون من الكرامة والمثوبة ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم وبخهم على ترك الإيمان الذى أمروا به ، وأبان أنه ليس لهم فى ذلك من عذر فقال :

(وما لكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟) أى وأىّ شىء يمنعكم من الإيمان والرسولُ بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : «أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا الملائكة ، قال : وما لهم لايؤمنون وهم عند ربهم ، قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لايؤمنون والوحى ينزل عليهم ، قالوا فنحن : قال : وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها» .

(وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) أى وقد أخذ الله عليكم الميثاق بما نصب لكم من الأدلة على وحدانيته فى الكون ، أرضه وسمائه ، برّه وبحره ، وفى الأنفس بما تشاهدون فيها من بديع صنعها ، وعظيم خلقها ، إن كنتم تؤمنون بالدليل العقلى أو النقلى .

وصفوة القول : إن الأدلة تظاهرت على وجوب الإيمان بالله ورسوله ، فقد نصب

فى الكون ما يرشد إلى وجوده ، وأرسل الرسل يدعون إلى ذلك ، وأقاموا البراهين على صدق ما يقولون ، فما عذركم ، و إلام تستندون فى رد هذا ؟ .

الآن قد تبين الرشد من الغى ، وأفصح الصبح لذى عينين ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فهل من مدّكر ؟

ثم قطع عليهم الحجة وأزال معذرتهم فقال :

(هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، و إن الله بكم لرءوف رحيم) أى وهو الذى ينزل على رسوله دلائل واضحات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ولرأفته بكم هداكم إليه على أتم وجه ، ومكن لكم من النظر فى الأنفس والآفاق .

و بعد أن و بخهم على ترك الإيمان ، و بخهم على ترك الإنفاق ، وأبان أنه لامعذرة لهم فى ذلك فقال :

(وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات الأرض) أى وما لكم أيها الناس لاتنفقون مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثا .

والخلاصة — أنفقوا أموالكم فى سبيل الله ، ليكون ذلك ذخرا لكم عند ربكم قبل أن تموتوا فلا تقدروا على ذلك ، إذ تصير الأموال ميراثا لمن له السموات والأرض .

ثم بين تفاوت درجات المنفقين على حسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق فقال :

(لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) أى لايستوى من آمن وهاجر وأنفق ماله فى سبيل الله قبل فتح مكة ، ومن أنفق من بعد الفتح — ذاك أنه قبل فتحها كان الناس فى جهد وضيق ولم يؤمن إذ ذاك إلا الصديقون ، أما بعد الفتح فقد انتشر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ومن ثم قال :

(أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

(وكلا وعد الله الحسنى) أى وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ماعملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى مقدار الجزاء كما قال فى آية أخرى « لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » .

أخرج أحمد عن أنس قال : « كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا أصحابى ، فوالذى نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه » .

ثم وعد وأوعد فقال :

(والله بما تعملون خبير) أى والله عليم بظواهر أحوالكم وبواطنها ، فيجازيكم بذلك ، وخبرته تعالى بكم فضل أعمال من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق بعده وقاتل ، وما ذاك إلا لعلمه بإخلاص الأول فى إنفاقه فى حال الجهد والضيق .

ولأبى بكر الصديق الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها ، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يجزيه بها .

ثم ندب إلى الإنفاق فى سبيله ، ووبخ على تركه فقال :

(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) أى من هذا

الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسبا أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

وعن ابن مسعود قال : «لما نزلت هذه الآية : «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ » قال أبو الدَّحْدَاحِ الأنصارى يا رسول الله و إن الله ليريد منا القرض ؟ قال نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : إنى أقرضت ربى حائطى (بستانى) وكان له حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح ، قالت لبيك ، قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل ، قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها ، فقال رسول الله : كم من عذق رَدَاح فى الجنة لأبى الدحداح » وهذا الأسلوب يستعمل فى الأمر العزيز النادر فيقال : من ذا الذى يفعل كذا ، إذا كان أمرا عظيما ، وعلى هذا جاء قوله : « مَنْ ذَا الذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ

وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) .

شرح المفردات

المراد بالنور هنا: مايوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من علم وعمل ، بشراكم : أى ماتبشرون به ، انظرونا : أى انتظرونا ، وأصل الاقتباس طلب القبَس : أى الجذوة من النار ، والسور : الحاجز ، من قِبَله : أى جهته ، بلى : أى كنتم معنا ، فتنتم أنفسكم : أى أهلكتموها بالمعاصى والشهوات ، وتربصتم : أى انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان، وارتبتم : أى شككتم فى أمر البعث ، والأمانى : الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام واحدها أمنية ، والغرور (بالفتح) الشيطان ، والفدية والفداء : مايبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، مأواكم : أى منزلكم الذى تأوون إليه ، مولاكم : أى أولى بكم ، والمصير : المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بالإيمان والإنفاق فى سبيل الله ، وحث على كل منهما بوجود موجباته؛ فحث على الإيمان بوجود الأسباب التى تساعد عليه وهى وجود الرسول بين أظهرهم، وكتابه الذى يتلى بين أيديهم ، وحث على الإنفاق فأبان أن المال إنما هو مال الله وهو عارية بين أيديهم ثم يرد إليه ، وأنهم ينالون على إنفاقه الأجر العظيم فى جنات النعيم ، ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثير النصير والمعين ـ ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، وأنهم يبشرون بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ثم أردفه بذكر حال المنافقين إذ ذاك ، وأنهم يطلبون من المؤمنين

شيئا من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل ، فيتهكم بهم المؤمنون ويخيبون آمالهم ويقولون لهم : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف ، فلا نور إلا منها ، ثم أرشد إلى أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه ، وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى ، وانتظروا أن تدور على المؤمنين الدوائر ، فينطفىء نور الإيمان ، وشكوا فى أمر البعث وغرهم الشيطان فأوقعهم فى مهاوى الردى ، ثم أعقبه ببيان أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا ، فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

الإيضاح

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) أى لهم الأجر الكريم حين ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم ما يكون السبب فى نجاتهم وهدايتهم إلى سبيل الجنة من العلوم التى كملوا بها أنفسهم فى الدنيا كالاعتقاد بالتوحيد وخلع الأنداد والأوثان ، والأعمال الصالحة التى زكوا بها أنفسهم ، وبها أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه مخلصين له الدين ، وبأيمانهم تكون كتبهم كما جاء فى آية أخرى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً » .

(بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى وتقول لهم الملائكة : أبشروا بجنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما قدمتم من صالح الأعمال ، وجاهدتم به أنفسكم فى ترك الشرك والآثام ، وكنتم تذكرون الله بالليل والناس نيام ، فطوبى لكم وهنيئا بما عملتم .

ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى وذلك الخلود فى الجنات التى سمعتم أوصافها هو النجح العظيم الذى كانوا يطلبونه بعد النجاة من عقاب الله .

و بعد أن ذكر حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين فقال :

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) أى فى هذا اليوم يقول المنافقون والمنافقات : أيها الذين نجوتم بإيمانكم بربكم وفزتم برضوانه حتى دخلتم فسيح جناته ، انتظروا نلحق بكم ونقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس ، والعذاب الأليم الذى نحن مقبلون عليه ، فيجابون بما يخيب آمالهم و يلحق بهم الحسرة والندامة كما قال :

(قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أى ارجعوا من حيث أتيتم ، واطلبوا لأنفسكم هناك نورا ، فإنه لاسبيل إلى الاقتباس من نورنا الذى كان بما قدمنا لأنفسنا وادخرنا لها من عمل صالح ، فَأَيْهَاتَ أَيْهَاتَ أن تنالوا نورا إذ لا ينفع المرء حينئذ إلا عمله ، ولله در القائل :

صاح هـل رَيْت أو سمعت براعٍ ردَّ فى الضَّرْع ما قرى فى الحلاب

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والاستهزاء بطلبهم ، كما استهزءوا بالمؤمنين فى الدنيا حين قالوا آمنا ، وما هم بمؤمنين ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى حين يقال لهم : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » .

ثم ذكر ما يكون بعد هذه المقالة فقال :

(فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) أى فضرب بين الفريقين حاجز جانبه الذى يلى مكان المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة ، وجانبه الذى يلى المنافقين وهو النار فيه العذاب .

ثم أرشد إلى ما يكون من المنافقين حينئذ فقال :

(ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) أى ينادى المنافقون المؤمنين :

أَمَا كنّا معكم فى الدار الدنيا نصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم : بلى كنتم معنا ، ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصى ، وأخرتم التوبة ، وشككتم فى أمر البعث بعد الموت ، وغرتكم الأمانى ، فقلتم سيُغْفَرُ لنا ، وما زلتم كذلك حتى حضركم الموت ، وغركم الشيطان فقال لكم : إن الله عفوّ كريم لا يعذبكم .

والخلاصة — إنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم ، وكنتم فى حيرة من أمركم ، فلا تذكرون الله إلا قليلا . ثم أيأسوهم من عاقبة أمرهم ، وأنهم هالكون لا محالة . ولا سبيل إلى الخلاص من النار فقال :

(فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم و بئس المصير) أى فاليوم لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه ، فمصيركم إلى النار و إليها متقلبكم ومثواكم ، وهى أولى بكم من كل منزل آخر ، لكفركم وارتيابكم ، وساءت مصيرا ومآلا .

والخلاصة — إنه لا مناص من النار فلا فداء ولا فكاك منها .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) .

شرح المفردات

ألم يأن : ألم يجئ وقت ذلك من قولهم أنى الأمر أنيا وأناء و إناء إذا جاء أناه أى وقته ، والخشوع : الخشية والخوف ، وذكر الله مواعظه ، والحق : هو القرآن ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والأمد : الزمان ، وطال عليهم الأمد

أى طال عليهم العهد بينهم و بين أنبيائهم ، فقست قلوبهم : أى صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فاسقون : أى خارجون عن حدود دينهم رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواه ، والأرض الميتة : هى التى لاتنبت شيئا ، والآيات : هى البينات والحجج ، تعقلون : أى تتدبرون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة ، وأن الأولين لهم نور يهديهم إلى طريق الجنة ، وأن الآخرين يطلبون منهم أن يأتوهم قبسا من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة ، فيردونهم خائبين ، ويقولون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ـ أردف هذا بعتاب قوم من المؤمنين فترت هممهم عن القيام بما ندبوا له من الخشوع ، ورقة القلوب بسماع المواعظ وسماع القرآن ، ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال العهد بينهم و بين أنبيائهم فقست قلوبهم وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيه ، ثم أبان لهم بضرب المثل أن القلوب القاسية تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث والمطر .

روى عن ابن مسعود أنه قال : « لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا فى جهد جهيد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت الآية » .

وعن ابن عباس أنه قال : « إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية».

الإيضاح

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) أى ألما آن للمؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ ، فتفهمه وتنقاد له ، وتطيع أوامره ، وتنتهى عن نواهيه .

و إذا كان المؤمنون قد أصابهم الوهن ولم يمض على الإسلام أكثر من ثلاث عشرة سنة كما قال ابن عباس ، فما بالنا اليوم وقد مضى عليهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا، فتعبيرها عن حالهم الآن بالأولى ، فالوهن الآن أضعاف مضاعفة عما كان فى تلك الحقبة ، ومن ثم أفرط الفرنجة فى إذلالهم واستعبادهم ، وصاروا غرباء فى ديارهم ، والأمر والنهى فيها لسواهم :

ويُقضى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يستأذنون وهم شهود

ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب قبلهم فقال :

(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى لايتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى حين طال الأمد بينهم و بين أنبيائهم ، فقست قلوبهم ولم تقبل موعظة ولم يؤثر فيها وعد ولا وعيد ، و بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا فى دين الله دون دليل ولا برهان ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وكثير منهم خرج عن أمر الدين فى الأعمال والأقوال كما قال « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ». أى فسدت قلوبهم فقست وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، فتركوا الأعمال التى أمروا بها ، واجترحوا ما نهوا عنه .

والخلاصة — إن الله نهى المؤمنين أن يكونوا حين سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم ، لما طال العهد بينهم و بين أنبيائهم .

ثم ضرب المثل لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن فى القلوب فقال :

(اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى إن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى النفوس الحيارى بعد ضلّتها ،

ويفرّج الكروب بعد شدتها ، ببراهين القرآن ودلائله ، وبالمواعظ والنصائح التى تلين الصخر الأصم ، ويحييها بعد موتها كما يحيى الأرض الهامدة المجدبة بالغيث الوابل الهتّان ، وقد ضرب لكم الأمثال كى تتدبروا وتكمل عقولكم ؛ فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، وهو الفعال لما يشاء ، الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير المتعال .

إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

شرح المفردات

المصدقين : أى المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوى الحاجة ، والقرض الحسن : هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ، يضاعف لهم : أى يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ، والصديق : من كثر منه الصدق وصار سجية ، والشهداء من قتلوا فى سبيل الله ، واحدهم شهيد .

المعنى الجملى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة ـ ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

الإيضاح

(إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم) أى إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم ابتغاء مرضاة الله ، لايريدون جزاء ولا شكورا - يضاعف لهم ربهم ثواب إنفاقهم فيقابل الحسنة الواحدة بعشر أمثالها ، ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، ولهم ثواب جزيل ومرجع صالح .

(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) أى والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله ، وآمنوا بما جاءوهم به من عند ربهم ، أولئك هم فى حكم الله بمنزلة الصديقين .

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) أى والذين استشهدوا فى سبيل الله لهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون على حسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال .

والخلاصة — إن العاملين أقسام : فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » .

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك بذكر حال الأشقياء فقال :

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبدا بحيث لايفارقونها .

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ

يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) .

شرح المفردات

اللعب : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وزينة : أى كالملابس الفاخرة ، وتفاخر : أى بالأنساب والعظام البالية ، وتكاثر فى الأموال والأولاد : أى مباهاة بكثرة العُدد والعَدد ، والغيث : المطر ، والكفار الزراع ، يهيج : أى يبتدئ فى اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضرا ، حطاما : أى هشيما متكسرا من يبسه ، والغرور : الخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات ـ أردف ذلك بوصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، وضرب لذلك مثل الأرض ينزل عليها المطر فتنبت الزرع البهيج الناضر الذى يعجب الزراع لتمامه وجودة غلته ، وبينا هو على تلك الحال ، إذا به يصفرّ بعد النضرة والخضرة ويجف ثم يتكسر ويتفتت ، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة ، فمن أجاد زرعه حصد وربح ، ومن توان وكسل ندم ولات ساعة مندم .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول فى جنات عرضُها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به و برسله فضلا منه ورحمة وهو المنعم عظيم الفضل .

الإيضاح

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد) أى اعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا ماهو إلا لعب ولهو تتفكهون به ، وزينة تتزينون بها ، وبها يفخر بعضكم على بعض ، وتتباهون فيها بكثرة الأموال والأولاد .

ثم ضرب مثلا يبين أنها زهرة فانية ، ونعمة زائلة فقال :

(كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما) أى ما مثل هذه الحياة فى سرعة فنائها وانقضائها على عجل إلا مثل أرض أصابها مطر وابل ، فأنبتت من النبات ما أعجب الزراع وجعلهم فى غبطة وحبور ، وبهجة وسرور ، وبينا هو على تلك الحال إذا هو يصوح ويأخذ فى الجفاف واليبس ، ثم يكون هشيما تذروه الرياح .

ونحو الآية قوله : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ » .

ثم ذكر عاقبة المتهكمين فيها الطالبين لتحصيل لذاتها ، المتهالكين فى جمع حطامها ، والمعرضين عنها الطالبين لرضوان ربهم فقال :

(وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) أى وفى الآخرة إما عذاب شديد دائم لمن انهمك فى لذاتها ، وأعرض عن صالح الأعمال ، ودمى نفسه بالشرك والآثام ، وإما مغفرة من الله ورضوان من لدنه لمن زكى نفسه وأخبت إلى ربه وأناب إليه :

قدّم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غِرَّةٍ زَلَجَا

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فإنه زائل خادع من ركن إليه واغترّ به وأعجبه حتى اعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها .

ولما أبان أن الآخرة قريبة وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم — حث على المبادرة إلى فعل الخيرات فقال :

(سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى سابقوا أقرانكم فى مضمار الأعمال الصالحة ، وأدّوا ما كلفتم به من أوامر الشريعة واتركوا نواهيها — يدخلكم ربكم بما قدمتم لأنفسكم ، جنة سعتها كسعة السموات والأرض .

ثم بين المستحقين لها فقال :

(أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) أى هيئت للذين اعترفوا بوحدانية الله وصدقوا رسله .

ثم بين أن هذا فضل منه ورحمة فقال :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى هذا الذى أعده الله لهم هو من فضله ورحمته ومنته عليهم .

وفى الصحيح « أن فقراء المهاجرين قالوا : يارسول الله ، ذهب أهلُ الدُّثور (الأموال) بالأجور والدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال وما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال : أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، قال : فرجعوا فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع العطاء عظيم الفضل ، فيعطى من يشاء ما شاء كرمًا منه وفضلا ، ويبسط له الرزق فى الدنيا ، ويهب لهم النعم ، ويعرفهم مواضع الشكر ، ثم يجزيهم فى الآخرة ما أعده لهم مما وصفه قبل .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ (٢٤) .

شرح المفردات

فى الأرض : أى كالجدب والفاقة واحتلال الأجانب الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين ، فى أنفسكم : أى كالمرض والفاقة ، فى كتاب : هو اللوح المحفوظ ، نبرأها : أى نخلقها ، وتأسوا : أى تحزنوا ، ما فاتكم : أى من نعيم الدنيا ، ما آتاكم :

أى ما أعطاكم ، والمختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، والفخور : هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن متاع هذه الدنيا زائل فانٍ ، وأن مافيها من خير أوشر لايدوم - أردف ذلك بتهوين المصايب على المؤمنين ، فذلك يكون مصدر سعادة نفوسهم واطمئنانها ، وبدونه يكون شقاؤها وكآبتها ، وآية ذلك أن لاتحزن على فائت ، ولا تفرح بما يصل إليها من لذاتها الفانية .

ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ، ويأمرون الناس بذلك ، ويعرضون عن الإنفاق فلا يجنّ إلا على أنفسهم ، والله غنى عنهم ، وهو المحمود على نعمه التى لاتدخل تحت حد .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) أى ما أصابكم أيها الناس من مصايب فى آفاق الأرض كقحط وجدب وفساد زرع ، أو فى أنفسكم من أوصاب وأسقام - إلا فى أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن علمه بالأشياء قبل وجودها ، وكتابته لها طبق ما توجد فى حينها - يسير عليه ، لأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون .

أخرج الحاكم وصححه عن أبى حسان : أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله عنها فقالا إن أبا هريرة يحدّث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ، فقالت : والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، كان يقول « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة فى المرأة

والدابة والدار ثم قرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » .

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) أى أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تحزنوا على فائت ، ولا تفرحوا بآت .

والخلاصة — إن كل شىء قُدّر فى الكتاب ، فكيف نفرح أو نحزن ؟ .

قال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا .

وقال حكيم : الصبر مُخْرج من الشقاء ، فلا سعادة إلا بالصبر ، ووصول النفس إلى كمالها الخلقى ، بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها ، فيصيبها مرة ويخطئها أخرى وهى مطمئنة ، لايدخلها زهْو ولا إعجاب بما نالت ، ولا حزن على ما فاتها .

وعلى الجملة فالحزن المذموم هو مايخرج بصاحبه إلى ما يذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، والفرح المنهى عنه هو الذى يطغى على صاحبه ويلهيه عن الشكر .

(والله لايحب كل مختال فخور) أى إن المختال الفخور يبغضه الله ولايرضى عنه .

ثم بين أوصاف المختالين الفخورين فقال :

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) أى إن المختالين بما أوتوا من المال يضنون به ، لأنهم يرون عزتهم فى وجوده ، ويعدُهم الشيطان بالفقر إذا هم أنفقوه ، وقد يبلغ الأمر بهم أن يأمروا سواهم بالبخل ويبدوا لهم النصائح التى تجعلهم يضنون به مدعين أن ذلك إشفاق عليهم ونصح لهم .

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن يعرض عن الإنفاق فلا يضرنّ بذلك إلا نفسه ، فالله غنى عن ماله وعن نفقته ، محمود إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه ، ولا يضيره الإعراض عن شكره كما قال موسى عليه السلام لقومه : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ » .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

شرح المفردات

البينات : المعجزات والحجج ، والكتاب : أى كتب التشريع ، والميزان : العدل ، والقسط : الحق ، وأنزلنا الحديد : أى خلقناه ، والبأس : القوة ، وليعلم الله أى ليعلمه علم مشاهدة ووجود فى الخارج .

الإيضاح

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أى ولقد أرسلنا الأنبياء إلى أممهم ومعهم البراهين الدالة على صدقهم ، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم ، ومعهم كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ، وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

ولما كان الناس فريقين فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن ، وكان العدل والقانون لابد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وأعوانه والجند ، وهؤلاء لابد لهم من عُدّة يحمون بها القانون والعدل فى داخل البلاد وفى خارجها أعقب هذا بقوله :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) أى وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم وتحمى المظلوم ، وفيه منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أى و إنما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكُراع لمجاهدة أعدائه، وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم.

روى أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

(إن الله قوى عزيز) أى إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لايقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، والإنجيل : الكتاب الذى أنزل على عيسى وفيه شريعته ، والمراد من الرأفة : دفع الشر ، ومن الرحمة : جلب الخير، وبذا يكون

بينهم مودة ، والرهبانية: ترهبهم فى الجبال فارّين بدينهم من الفتنة ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، محتملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الغيران والكهوف ، وقوله ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ابتغاء رضوان الله : أى طلبا لرضاه ومحبته ، فما رعوها : أى ما حافظوا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله ـ أتبع ذلك ببيان ما أنعم به على أنبيائه من النعم الجسام ، فذكر أنه شرّف نوحا و إبراهيم عليهما السلام بالرسالة ، ثم جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فما جاء أحد بعدهما بالنبوة إلا كان من سلالتهما .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا و إبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) أى ولقد بعثنا نوحا إلى طائفة من خلقنا ، ثم بعثنا إبراهيم من بعده لقوم آخرين ، ولم نرسل بعدهما رسلا بشرائع إلا من ذريتهما .

ثم بين أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال :

(فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) أى فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضُلّال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان ، مدسّون أنفسهم باجتراح الآثام .

وفى الآية إيماء إلى أنهم خرجوا عن الطريق المستقيم بعد أن تمكنوا من الوصول إليه، و بعد أن عرفوه حق المعرفة ، وهذا أبلغ فى الذم وأشد فى الاستهجان لعملهم .

(ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أى ثم بعثنا بعدهم رسولا بعد رسول على توالى العصور والأيام .

ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة شريعته فى عصر التنزيل ولوجود أتباعه فى جزيرة العرب وغيرها فقال :

(وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل) أى ثم أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى عليه السلام ، وأعطيناه الإنجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء ما فيه مكملا لما فى التوراة ومخففا بعض أحكامها التى شرعت تغليظا على بنى إسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق كما جاء فى قوله : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » .

ثم بين صفات أتباع عيسى فقال :

(وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) أى إن أتباعه الذين ساروا على نهجه وشريعته اتصفوا بما يأتى :

(١) الرأفة بين بعضهم و بعض ، فيدفعون الشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، و يصلحون ما فسد من أمورهم .

(٢) الرحمة فيجلب بعضهم الخير لبعض كما قال فى حق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٣) الرهبانية المبتدعة ، فقد انقطعوا عن الناس فى الفلوات والصوامع معتزلين الخلق وحرّموا على أنفسهم النساء ولبسوا الملابس الخشنة ، تبتلا إلى الله وإخباتا إليه .

(ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) أى ما فرضنا عليهم هذه الرهبانية ، ولكنهم استحدثوها طلبا لمرضاة الله والزلفى إليه .

ثم ذكر أنهم ما حافظوا عليها كما قال :

(فما رعوها حق رعايتها) أى فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة ، وما قاموا

بما التزموه حق القيام ، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى بن مريم فضموا إليه التثليث ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا وبدلوا .

وفى هذا ذم لهم من وجهين :

(١) إنهم ابتدعوا فى دين الله مالم يأمر به .

(٢) إنهم لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ربهم ، وقد كان ذلك كالنذر الذى يجب رعايته ، والعهد الذى يجب الوفاء به .

روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: «قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يابن مسعود ، قلت : لبيك يارسول الله ، قال : اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم ، فرقة من الثلاث وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه فقتلتهم الملوك ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانَىْ قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، فقتلتهم الملوك بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام بين ظهرانَىْ قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى صلوات الله عليه ، فلحقوا بالبرارى والجبال فترهبوا فيها فهو قول الله عز وجل « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » الآية ، فمن آمن بى واتبعنى وصدقنى فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون » .

(فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون) أى فآتينا الذين آمنوا منهم إيمانا صحيحا طبعت آثاره فى أعمالهم ، فزكوا أنفسهم ، وأخبتوا إلى ربهم ، وأدوا فرائضه ـ أجورهم التى استحقوها كفاء ما عملوا ، وكثير منهم فسقوا عن أمر الله ، واجترحوا الشرور والآثام ، وظهر فسادهم فى البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكبكبوا فى النار وباءوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

شرح المفردات

قال المؤرّج السدوسى : الكفل : النصيب بلغة هذيل ، وقال غيره بل بلغة الحبشة ، وقال المفضل الضبى : أصل الكفل كساء يديره الراكب حول سنام البعير ليتمكن من القعود عليه ، لئلا يعلم : أى لكى لا يعلم.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من آمنوا من أهل الكتاب إيمانا صحيحا لهم أجرهم عند ربهم - ذكر هنا أن من آمنوا منهم بعيسى أولا و بمحمد صلى الله عليه وسلم ثانيا يؤتيهم أجرهم مرتين ، لإيمانهم بنبيهم ، ثم بمحمد من بعده ، ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ورحمة منه لايخص به قوما دون قوم ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، لا كما يقول اليهود : إن الوحى والرسالة فينا لاتعدونا إلى سوانا ، فنحن شعب الله المختار ، ونحن أبناء الله وأحباؤه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به و يغفر لكم والله غفور رحيم) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله من

أهل الكتابين التوراة والإنجيل ـ خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ـ يعطكم ضعفين من الأجر ، لإيمانكم بعيسى والأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ثم بإيمانكم بمحمد بعد أن بُعث نبيا ، ويجعل لكم هدى تستبصرون به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم ما أسلفتم من الذنوب وما فرطتم فى جنب الله ، والله واسع المغفرة لمن يشاء ، رحيم بعباده يقبل توبتهم — متى أنابوا إليه ، وخشعت له قلوبهم .

والخلاصة — إنه تعالى وعد المؤمنين برسوله بعد إيمانهم بالأنبياء قبله بأمور ثلاثة :

(١) أنه يضاعف لهم الأجر والثواب .

(٢) أن يجعل لهم نورا بين أيديهم وعن شمائلهم يوم القيامة يهديهم إلى الصراط السوى ويوصلهم إلى الجنة .

(٣) أن يغفر لهم ما اجترحوا من الذنوب والآثام .

روى الشعبى عن أبى بُرْدة عن أبيه أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدّب أمَتَه فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »

رواه البخارى ومسلم .

ثم رد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم فقال :

(لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شئ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئا من فضل الله من الأجرين ولا يتمكنون من نيله مالم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة ذلك — إن إيمانهم بنبيهم لاينفعهم شيئا مالم يؤمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن أبى حاتم قال لما نزلت « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر ، فاشتد ذلك على أصحابه فأنزل الله « يأيها الذين آمنوا » الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع الفضل كثير العطاء ، يمنحه من شاء من عباده لايخص به قوما دون آخرين ، ولا شعبا دون آخر .

سبحانك قسمت حظوظك بين عبادك بمقتضى عدلك وفضلك ، وآتيتهم فوق ما يستحقون بجودك وكرمك . فاللهم آتنا من لدنك الرشد والتوفيق ، واهدنا لأقوم طريق .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) صفات الله وأسماؤه الحسنى ، وظهور آثاره فى بدائع خلقه .

(٢) الحض على الإنفاق .

(٣) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة .

(٤) ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضا حسنا .

(٥) ذم الدنيا وأنها لهو ولعب .

(٦) الترغيب فى الآخرة وتشمير العزيمة للعمل لها .

(٧) التسلية على المصايب .

(٨) ذم الاختيال والفخر والبخل .

(٩) الحث على العدل .

(١٠) الاعتبار بالأمم السالفة .

(١١) قصص نوح وإبراهيم .

(١٢) إن أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يضاعف لهم الأجر عند ربهم .

(١٣) الله يصطفى من رسله من يشاء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى صبيحة يوم الجمعة لتسع بقين من رجب الأصم من سنة خمس وستين بعد الثلثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .